مقدمة

من يقرأ تاريخ الإسلام ، منذ نشأته على يد محمد بن عبدالله آخر رسل الله ، إلى أيامنا هذه ، سوف تتوقفه فى مختلف العصور صور مشرقة أعظم ما يكون الإشراق ، تركت بصماتها التى لا تمحى فى ذاكرة الأيام.

وهذه الصور ليست مجرد مواقف رائعة لأناس وضعوا رءوسهم على أكفهم فى سبيل المبادئ التى آمنوا بها ، ولكنهم بجانب ذلك غيروا مسار البشرية كلها ، وأجبروا التاريخ أن يغير مجراه، ورسموا خريطة جديدة لعالم متطلع إلى كل ما هو أفضل وأروع وأعظم.

ما كان أحد يدور بخلده عندما خرج من بنى هاشم محمد بن عبدالله يدعو الناس إلى الإسلام ، أن هذه الدعوة ستشق طريقها رغم حصار المشركين لها ومحاربتهم لها ، وتوحد شبه الجزيرة العربية كلها تحت راية واحدة ، ثم تتصدى لأعتى الإمبراطوريات المعروفة آنذاك وتقهرها ، وتقيم على أنقاض الحضارة الفارسية والرومانية حضارة جديدة ، تقيم عالمًا جديدًا يعتنق التوحيد،

obeikandl.com

ويحقق شريعة الله ، وينشر فى ربوع البشرية كلها نور الله.

لم يكن أحد يصدق أن هؤلاء العرب الرحل ، الذين يملكون أدوات قتال بدائية، إذا قورنت بالترسانات العسكرية الرومانية والفارسية، ويجيدون حرب الصحراء، سوف يقاتلون إمبراطوريات بها جيوشها المنظمة المدربة ولها أمجادها العسكرية التاريخية. ولكن الإيمان فى القلوب صنع المعجزات ، فإذا بدولة الفرس تسقط تحت سنابك خيول جند الله ، وإذا بدولة الرومان تتقلص إمبراطوريتها بعد انتزاع مصر والشام والشمال الإفريقى منها، ولتصبح الدولة الإسلامية فى سنوات قليلة أقوى قوى العالم، فتكوِّن الجيوش ، وتصنع الأساطيل، وتملك السيطرة البحرية على البحر المتوسط، كما تمتلك السيطرة على تلك الأراضى الشاسعة الممتدة من المحيط الأطلنطى حتى أسوار الصين . . بل تتوغل فى داخل القارة الأوربية وتضم الأندلس، ويتطلع قائد الفتح موسى بن نصير إلى غزو أوربا ، لتصل جيوشه عن طريقها إلى عاصمة الخلافة الأموية فى دمشق. .

ولولا اعتراض الخليفة الوليد بن عبدالملك الذى كان يرى أن الإسلام عليه أن يوطد أركانه فى الدول المفتوحة ، وأن يعرف الناس أمور دينهم . . لولا إيمان الوليد بذلك ، ومنعه موسى بن

نصير من تحقيق حلمه الكبير لكانت أوربا كلها اليوم تحت راية الإسلام..

ولذلك قرر المؤرخ الشهير «جيبون» فى كتابة تاريخ قيام الإمبراطورية الرومانية وسقوطها حقيقة القدرة العسكرية الهائلة للعرب عندما قال:

«إن انتصار المسلمين قد غطى مسافة تزيد عن ألف ميل من مرتفعات جبل طارق حتى شواطئ نهر اللورين. ولو تمكن العرب من قطع مسافة مماثلة كان يعنى ذلك الوصول إلى حدود بولندا ، أو مرتفعات اسكوتلندا ، فنهر الراين ليس أشق من نهر النيل أو الفرات، وقد كان من المستطاع أن تصل السفن العربية دون قتال إلى مصب نهر التيمس».

هذه الانتصارات على المستوى العسكرى كان يواكبها تقدم حضارى مذهل . . فقد كان الاجتهاد يشق طريقه هو الآخر فى تفسير كتاب الله وسنة رسوله ، وظهرت المذاهب الفقهية المختلفة. كما نقل المسلمون الفلسفة اليونانية وفسروها، وحاول بعضهم التوفيق بين الفلسفة والدين ، أو بين العقل والنقل - كما يقولون - وعن طريق الترجمات العربية الفلسفية اليونانية وشرحها.

obeikandl.com

عرفت أوربا هذه الفلسفة ، ومن ثم ساعدت على النهضة الفكرية فى أوربا عندما بدأت تتحرك نحو التحضر والتقدم ونبذ الخرافات والأساطير التى عششت فى العقل الأوربى .. أى أن الحضارة الأوربية المعاصرة مدينة فى تقدمها للفكر الإسلامى.

إن دراسة حياة أبطال الإسلام الذى سجلوا أروع البطولات على جبال وسهول ووديان أوربا وآسيا وإفريقيا تلقى الضوء على أمجادنا التى يجب أن تبعث من جديد؛ لنخرج من دائرة العالم الثالث إلى دائرة المعالم المتقدم.

وليس هذا ردة إلى الماضى ، ولكن هذا يعطينا دفعة نحو التقدم فى عالم لا يعترف اليوم بالضعفاء والمتخلفين .. فالنظر إلى أمجادنا الماضية هو دعوة إلى المستقبل .. إلى الأخذ بالأسباب .. إلى أن نوغل فى فهم حضارة وتكنولوچيا العصر ، بجانب تلك الطاقة الهائلة التى تفتقدها حضارة الغرب .. وهى قوة الروح.

والواقع أن الحاضر هو لحظة سرعان ما تتحول إلى ماضٍ .. أن الزمن هو ماضٍ وحاضر يفضى إلى المستقبل .. والعاقل من يستوعب مسيرة التاريخ فيأخذ من ماضيه ما يدفعه نحو مشارف المستقبل.

مع هؤلاء الأبطال الأفذاذ الذين غيَّروا معالم التاريخ . . تعالَ نعش لحظات مع المجد والقوة ومسابقة الزمن مع تلك البطولات النادرة التى صنعت أمجادًا، وتاريخًا ؛ ليكون دافعًا إلى غد ملىء بالأمل لا التشاؤم . . بالتقدم لا التخلف . . بالبحث عن الذاتية الإسلامية لا الانسياق تحت مغمض الأعين أمام حضارة مادية بحتة.

إن قوة الدفع الهائلة التى يحققها الإسلام فى النفوس، وخلقه الإنسان السوى الذى يعرف حقوق ربه وحقوق نفسه وحقوق الآخرين، جديرة بأن تعود بنا إلى القوة ، لنكون مظلة أمن وسلام، لكل من يمم وجه نحو المرافئ الدافئة ، وينطلق لا يبغى سوى رضوان الله، فيكون فى رضا من ربه ورضا من الناس.

مأمــون غــريب

obeikandl.com